ثانيًا : نظرات في الروايات

بالنظر في الروايات السابقة ، نجد ما يلي :

١ ـ الهدف من نزول القرآن على سبعة أحرف :

عندما نقرأ روايات الحديث السابقة وغيرها ، نجدها ـ جميعًا ـ تهدف إلى مبدأ التيسير والتخفيف والتسهيل على الأمة الإسلامية ، وعدم تنفير الناس من هذا الدين الجديد في بدايته ، ولذلك قرأنا عبارات : [فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني] وقوله ﷺ : « **فرددت إليه أن هون على أمتي** » وذلك في الحرف ، وفي الحرفين ، ومبدأ التخفيف تقرر لعدم طاقة الناس وقدرتهم على استيعاب الحرف الواحد ، حتى إلى ستة أحرف ، وقد روى مسلم ، عن أبي ابن كعب ﷺ أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار [(١)] ، قَالَ : فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ ، فَقَالَ : «**أَسْأَلُ اللهَ مَعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَطِيقُ ذَلِكَ**» ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ ، فَقَالَ : « **أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَطِيقُ ذَلِكَ**» ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَحْرُفٍ ، فَقَالَ : «**أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَطِيقُ ذَلِكَ**» ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَؤُوا عَلَيْهِ ، فَقَدْ أَصَابُوا » [(٢)] . ونماذج الذين لا

---

(١) وأضاة : هي بفتح الهمزة والضاد : مستنقع الماء كالغدير ، وهو موضع بالمدينة النبوية ، ينسب إلى بني غفار ، لأنهم نزلوا عنده . فتح الباري ١٩/ ٣٣ .

(٢) صحيح مسلم ٦ / ١٠٣ ، ١٠٤ . وما بعدها .

يطيقون أن يقرؤوا القرآن على أقل من سبعة أحرف ، بينهم النبي ﷺ في الحديث المروي : لقي رَسُولَ الله ﷺ جِبْرِيلُ عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرَاءِ ، فَقَالَ : « **إِنَّمَا بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمّيينَ ، مِنْهُمُ الغُلاَمُ ، وَالْخَادِمُ ، وَالشَّيْخُ الْفَانِي ، وَالْعَجُوزُ** » ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : «فَلْيَقْرَأُوا الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ» (١) .

ويقول ابن الجوزي [ت٥٩٧هـ] : «فأما سبب وروده على سبعة أحرف ، فللتخفيف على هذه الأمة ، وإرادة اليسر بها ، والتهوين عليها ، شرفًا لها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق ... وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ، ولا بالتعليم والعلاج ، لا سيما الشيخ والمرأة ، ومن لم يقرأ كتابًا ، كما أشار إليه ﷺ فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكن من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يتكلف المتكلف ، وتأبى الطباع) (٢) .

ويرفض د/ إبراهيم أنيس [ت ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م] جميع الآراء التي فسرت الحديث ، ويأبى إلا أن يفسره بالغاية والهدف منه ، فيقول : (ولست أدري سر هذا الاختلاف ، وتعدد الأوجه ، إلا أن نعزوه إلى اجتهاد المتقدمين ، ومحاولتهم التوفيق بينه وبين ما تواضعوا عليه في شأن القراءات ، ونحن لا نشك ـ الآن ـ في أن للحديث وجهًا واحدًا يتفق والمنطق الإسلامي الذي

---

(١) مسند الإمام أحمد عن حذيفة ٥ / ٣٨٥ ، ٤٠٠ / دار صادر / بيروت ، ومسند الطيالسي عن أبي ١/ ٧٢ حديث رقم ٥٤٣ / دار المعرفة / بيروت ، وجامع البيان ١/ ١٢ .

(٢) النشر في القراءات العشر ١ / ٢٢ .

يتلخص في أن الدين الإسلامي قد دعا الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها إلى الإيمان به ، واتخاذه عقيدة لهم ، فلم يبعث النبي ﷺ لشعب ـ خاص ـ من الشعوب ، وإنما أرسل إلى الناس كافة ، هذا إلى أن الدين يسر لا عسر ، فقد اشتملت أحكامه وتعاليمه على كثير من الرخص حين يشق على الناس أمر من الأمور ، فنحن حين ننظر إلى هذا الحديث في ضوء الروح الإسلامي ، نرى أنه ليس إلا إحدى تلك الوسائل التي أريد بها التيسير على الناس ، ومنع المشقة عنهم ، فالمسلم أيًّا كانت لهجة ، وأيًّا كانت بيئته ، وأيًّا كانت تلك الصفات الكلامية التي نشأ عليها وتعودها ، ولم يقدر إلا عليها ، يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذي تعودته عضلات صوته في نطقه بلهجته أو لغته ، ويجب ألا ننكر عليه ، أو أن نهزأ من قراءته ، فقد حاول بذلك الجهد ، فله أجر اجتهاده ، وجميع الروايات التي صاحبت قول هذا الحديث تؤيد ما نذهب إليه من أن النبي ﷺ لم يُرد به إلا أن يمنع الناس من القدح في قراءة غيرهم وإنكارها عليهم) ثم يعرض د/ أنيس لرأي ابن الجزري [ت٨٣٣هـ] وابن قتيبة [ت٢٧٦هـ] وكلامهم في مبدأ التخفيف ، ثم يقول : (والفرق بيننا وبين أصحاب هذا الرأي هو أنهم قصروا الأمر على لهجات العرب ، في حين أننا نجعله أعم وأشمل ، أي أن قصد التيسير والتسهيل يشمل جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وأزمانهم : في الماضي والحاضر والمستقبل ، فليست تلك الحروف السبع التي أجيز قراءة القرآن بها مقصورة على اللهجات العربية ، بل تشمل جميع لهجات المسلمين في جميع بقاع الأرض ، فإذا قرأ الهندي المسلم القرآن ـ أمامنا ـ ولاحظنا بعض الخلافات الصوتية في نطقه ، وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهي غاية جهده ، ولا يقدر على غيرها)[1] .

---

(١) في اللهجات العربية ٥٥ وما بعدها/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ط٥ .

تعليق :

ونحن مع د/ أنيس في أن الهدف من الحديث التيسير والتسهيل ، لكننا لسنا معه في أمرين :

أ ـ تفسير الحديث بالهدف ـ فقط ـ لأنه كما ورد ﴿ فَٱقْرَءُواْ ﴾ ﴿ مِنْهُ ﴾ [المزمل:٢٠] ورد ـ أيضًا : «**أنزل على سبعة أحرف**» فلفظ (سبعة) يحتاج إلى تفسير ، وتوضيح وجلاء .

ب ـ ليست قراءة المسلمين اليوم أيًّا كانت بيئاتهم ولغاتهم ـ تمثيلًا للأحرف السبعة ، بل هي جزء منها ، فالتمثيل غير مسلم به .

٢ ـ مصدر القراءات :

القراءات ـ على حد تفسير الأحرف بالقراءات ـ مصدرها الوحي وهذا واضح في الروايات المذكورة ، ففي الرواية الأولى ، نجد عبارة : «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ» ، وفي الثانية ، نجد عبارة «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ» ، وفي الثالثة نجد عبارة «أُرْسِلَ إِلَيَّ» ، وجاء ذلك الأمر صريحًا جليًّا في رواية مسلم : «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ» وهذا يدل دلالة لا شك فيها ولا مراء حولها ، أن القراءات مصدرها الوحيد الذي نبعت منه ، إنما هو الوحي من عند الله ـ وهذا بخلاف ما ذهب إليه د . طه حسين [ت١٩٣٧م] ، حيث قرر أن مصدر القراءات ليس الوحي ، وإنما هو اللهجات ، وهذا واضح في عبارته التي يقول فيها : [وهنا وقفة لابد منها ، ذلك أن قومًا من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي ﷺ نزل بها جبريل على قلبه ، فمنكرها كافر من غير شك ولا ريبة ، ولم يوفقوا لدليل يستدلون به على ما يقولون ، سوى ما روى في الصحيح من قوله ﷺ : «**أُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**» والحق أن ليست هذه القراءات

السبع من الوحي في قليل ولا كثير ، وليس منكرها كافرًا ، ولا فاسقًا ، ولا مغمزًا في دينه ، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها ، للناس أن يجادلوا فيها ، وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها»[١] .

* وربما يفهم من كلام د/ طه أنه اعتمد على ما يلي :

أ ـ عدم توفيق العلماء واهتدائهم إلى الأحاديث التي يثبتون فيها أن القراءات وحي ، وترتب على ذلك عدم أحقيتهم في تكفير منكر القراءات .

ب ـ اختلاف القراء كثيرٌ .

*** ويرد عليه بما يلي :**

أ ـ كثرة طرق الحديث المختلفة والمتنوعة ، ولم تكن رواية واحدة مع أنها تكفي ـ والتي تثبت ـ بجانب التخفيف والتيسير ـ أنها وحي من عند الله ﷻ وليست القراءات السبع فقط ، بل يضاف إليها القراءات الشاذة يقول ابن الجزري : «والقطع بأنها منزلة من عند الله واجب»[٢] . واشترط علماء القراءات شروطًا لقبول القراءة ، وهي : «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا ، وصح سندها ، التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها ، سواء أكانت عن الأئمة السبعة ، أم عن العشرة ، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة ، سواء أكانت عن

---

(١) في الأدب الجاهلي ٩٥/ ط دار المعارف/ ١٩٧٧م .

(٢) النشر ١/ ١٣ .

السبعة أم عمن هو أكبر منهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[١] .

فانظر إلى اشتراطهم : صحة السند ، وهو الركن الأهم ، الذي عليه قبول القراءة : يقول ابن الجزري : «وأئمة القراء لا تحمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل والرواية ، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها ، والمصير إليها»[٢] .

ب ـ أما الخلاف الذي يتخذه الدكتور ، فليس خلافًا يصل إلى حد الاتهام والإنكار ، وإنما هو كما يقول ابن الجزري : «الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير ، لا اختلاف تضاد وتناقض ، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :٨٢] .

كما أن الخلاف بين القراء ليس إلا من قبيل الاختيار ، يقول ابن الجزري : «ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم ، إنما هو من حيث إنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراءً به ، وملازمةً له ، وميلًا إليه ، لا غير ذلك ، وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم بالمراد بها أن ذلك القارئ ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به ، فآثره على غيره ، وداوم

---

(١) السابق ١/ ٩ .

(٢) النشر ١/ ١٠ ، ١١ .

عليه ، ولزمه ، حتى اشتُهر وعُرف به ، وقُصد فيه ، وأُخذ عنه ، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء ، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد» [١] . لهذا وغيره لا يمكن أن تكون اللهجات مصدر القراءات لا الوحي ـ كما زعم ، اللهم إلا إذا قصد الدكتور أن اللهجات كانت سببًا في السعة والرحمة ، فتكون القراءات مظهرًا من مظاهر اختلاف اللهجات)[٢] . ولكن يبقى قوله : (والحق أن ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير) وقد رد عليه .

٣ ـ اتحاد القبيلة واختلاف القراءة :

اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم { وهما من قبيلة واحدة ، يقول ابن الجزري : (فإن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اختلفا في قراءة سورة الفرقان ـ كما ثبت في الصحيح ـ وكلاهما قرشيان من لغة واحدة وقبيلة واحدة)[٣] .

* وسنذكر هذه الملاحظة ـ والتعليق عليه ـ فيما بعد .

٤ ـ آراء العلماء في الحديث :

الحديث لم يفسر المراد بالسبعة أحرف ، هل المقصود بها أصوات أو أحكام أو لهجات ، أو غير ذلك ؟ مما أدى إلى كثرة الآراء ، وتنوع الأقوال . وتعدد التفسيرات تجاه هذا الحديث .

---

(١) النشر ١/ ٥٢ .

(٢) في الأدب الجاهلي ٩٦ .

(٣) النشر ١/ ٢٤ .